الوعي بالمنهج (عقدة أوديب في الرواية العربية ،جورج طرابيشي)

المحاضرة الثالثة عشرة

1.مقدمة:

شهد النقد العربي المعاصر تحوّلا منهجيا لافتا تمثّل في انتقاله من القراءات الانطباعية والتاريخية إلى مقارباتٍ تستند إلى أدواتٍ معرفية حديثة، كان من أبرزها المنهج النفسي. وفي هذا السياق برزت إشكالية الوعي بالمنهج بوصفها شرطا أساسا في التعامل مع النصوص الأدبية؛ إذ لم يعد توظيف المفاهيم النفسية مجرّد استعارة تفسيرية، بل أصبح ممارسة نقدية تستدعي إدراك أصولها الفلسفية وحدودها الإجرائية.

ومن بين أبرز النقاد الذين أسهموا في ترسيخ هذا الوعي المنهجي في النقد العربي، جورج طرابيشي، ولا سيما في دراسته لمفهوم عقدة أوديب وتطبيقاته في الرواية العربية. فقد سعى طرابيشي إلى قراءة البنية السردية والنفسية للشخصيات الروائية في ضوء التحليل النفسي الفرويدي، كاشفا عن حضور العلاقة الأبوية وصراعاتها في تشكيل الوعي الفردي والجمعي داخل النص الروائي.

2. وعي المنهج النفسي وتجلياته في نقد جورج طرابيشي

إنّ استحضار عقدة أوديب في الرواية العربية عند طرابيشي لا يقتصر على إسقاط مفهومٍ غربيٍّ على نصوص عربية، بل يقوم على وعيٍ نقديٍّ بطبيعة المنهج وحدوده، وبكيفية تكييفه مع السياق الثقافي العربي. ومن ثمّ، يغدو الحديث عن عقدة وديب في هذا الإطار مدخلا إلى مناقشة أعمق لمسألة الوعي بالمنهج، وكيفية توظيفه توظيفا علميا يتجنب التعميم والاختزال، ويكشف في الوقت نفسه عن البنى النفسية الكامنة في الخطاب الروائي العربي.

نحن نعلم أنّ جورج طرابيشي متأثرا في كتاباته الأولى بالفكر الماركسي والفرويدي فقد مارس النقد النفساني في كثير من كتبه (أنثى ضد الأنوثة ، الرجولة وايدولوجيا الرجولة في الأدب العربي ، عقدة أوديب في الرواية العربية ، رمزية المرأة في الرواية العربية، الروائي و بطله ـ مقاربة اللاشعور في الرواية العربية كما خص بكتاب مستقل وحدده بمشكلة الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية...) فيبدو من خلال دراسته، أكثر النقاد العرب تطرفا في الدفاع عن هذا المنهج."

لقد تناول طرابيشي في كتابه (عقدة أوديب في الرواية العربية) أشكالا متعددة تنوعت بين القصة و الرواية والمسرحية ،حيث درس قصّتين لعبد القادر المازني هما: (إبراهيم الكاتب) و(إبراهيم الثاني)، كما قام بتحليل كتابات توفيق الحكيم المسرحية، ودرس رواية(سجن العمر) ،ورواية (عصفور من الشرق) ،أما الكاتبة أمينة السعيد فدرس لها قصة (النبوءة) ، وحاول جورج طرابيشي تطبيق التحليل النفسي على هذه الأعمال.

يرى جورج طرابيشي أن قصص كلّ من إبراهيم المازني، وتوفيق الحكيم، وأمينة السعيد تتجلّى فيها ملامح ما يُعرف بـ"الرواية العائلية". وانطلاقا من هذا التصور، نسعى إلى تحديد مفهوم الرواية العائلية كما تبلور عند سيغموند فرويد وغيره من منظّري التحليل النفسي، ثم بيان الكيفية التي تلقّى بها طرابيشي هذا المفهوم وأعاد توظيفه في قراءته للنص الروائي العربي، مبرزًا أبعاده النفسية ودلالاته الثقافية. ؟

يقول فيليب رييف:" العصاب هو عجز الإنسان عن الإفلات من قبضة الماضي ومن عبء تاريخه". ويرى سيغموند فرويد أن الجذر العميق لكل كتابة قصصية فنية يعود إلى مرحلة الطفولة، حيث يُنشئ الفرد ما يُسمّيه "الرواية العائلية". وتتكوّن هذه الرواية حين يبدأ الطفل في اكتشاف العالم الخارجي والحياة العامة، فيعيد نسج تجربته الشخصية وسيرته الذاتية عبر احتكاكه بالبنية الأبوية داخل الأسرة. ومن خلال هذا التفاعل، تتشكل تمثلاته الأولى عن السلطة، والهوية، والانتماء، وهي تمثلات تظل فاعلة في لاوعيه، وتجد طريقها لاحقا إلى الإبداع الأدبي في صورٍ سردية وفنية متعددة

.فمفهوم الرواية العائلية التي أشار إليها فرويد في كتابه (تفسير الأحلام) حاولت أن تبلوره (مارت روبير) مؤكدة أن أصول الرواية تعود إلى جملة من الرغبات والمحرمات عند الطفل اللقيط واللاشرعي ،وتمرده على وضعه لكن فرويد استبدل هذا الطرح بآخر في نظرية (قتل الأولاد لأبيهم) أو ما يعرف بعقدة أوديب".

أما طرابيشي فيرى أن مفهوم الرواية العائلية الذي صاغه فرويد في تحليله النفسي يختلف عن مفهوم نقاد المنهج التاريخي والاجتماعي حيث يقول:"...إنها بالتعريف الفرويدي ،رواية أصول ،لا الأصول التاريخية الفعلية ،بل الأصول المستلهمة ،فالمعصوب الأوديبي ،الذي لم ينجز بنجاح عملية نموه النفسي وانفصاله المؤلم عن والديه ،وأخفق في أن يمارس إزاء السلطة الوالدية وظيفة النقد الذي من شانه أن يحرره ولو جزئيا من تلك السلطة ،غالبا ما يسعى إلى الانتقام عن طريق استيهامي ، وذلك بأن يتصور نفسه" طفلا أنجب من زواج آخر أو طفلا متبنى".

إنّ تصوّر الرواية العائلية يكون من جانب حضور الأم واتصالها ضمن علاقة إيجابية طيبة أو علاقة صدامية فهو يجمع بين الممارسة النقدية بين نظرتي الرواية العائلية، والرواية الأوديبية خلال علاقة تتأسس بين الابن والأم والأب ، فحال الرواية العائلية يبنى وفق علاقة ثلاثية ،مثله مثل العلاقة الأوديبية ، والاختلاف يكمن أن يكون بمثابة تبادل للمواقع من حيث التقارب والتنافر. فبالنسبة لقصتي (إبراهيم الكاتب) و(إبراهيم الثاني) للمازني نلاحظ أن طابع السيرة الذاتية ظاهر في الروايتين يسمح ببروز الرواية العائلية التي حددها جورج طرابيشي من خلال توضيح أسس الصلة القائمة قصد سرد السيرة الذاتية للبطل إبراهيم في الروايتين (إبراهيم الكاتب) و(إبراهيم الثاني) فنجد صورة الأم حاضرة ومهيمنة على تفكير البطل ،الذي يحس باستمرار أن وجوده مرهون بوجود أمه" .

كما يرى طرابيشي من خلال تعمقه في شخصية المازني ،قد استمد من سيرته الذاتية ميله إلى الأمّ ، حيث يرى أن البطل ترسم في ذهنه صورة واحدة وهي الأم لا غيرها. "وأن لا مجال لإقامة علاقة مع امرأة أخرى ،وهذا الصدود عن المرأة خليلة كانت أم صديقة ،هو التحليل الأخير صدود عن الجنسية ما دامت الأم امرأة ، وما دامت كل امرأة حاملة للجنس بحكم غريزتها النوعية فإن المرأة الوحيدة التي يمكن أن يحبها إبراهيم لا بد أن تكون امرأة بلا جنس".

ونجد طرابيشي قد أعطى دليلا واضحا بأن إبراهيم لم يحب أي امرأة لقوله:"إن قراءة رواية إبراهيم الكاتب تبيح لنا أن نصوغ فرضية مؤداها أن بطلها لا يحاول أن يوهم نفسه ـ ويوهمنا معه ـ بأن قلبه يتسع لحب ثلاث نساء في آن واحد ،إلا أن قلبه بالأحرى رأسه ـ لا يتسع لحب أية امرأة على الإطلاق ."

من خلال ذلك أن طرابيشي ينفي أن يكون إبراهيم الكاتب أحب أية امرأة ،فقلبه إن يكون إلا لامرأة واحدة وهي أمه ."وهو ما يفسر أن له رغبة قوية للبقاء ،في المرحلة ما قبل الأوديبية المرحلة اللانرجسية التي يكون فيها الحلم الطفلي ، بانتمائه للعائلة النبيلة ،مجال كامل للتخيل والحلم ،وقد تمكن طرابيشي من تحديد ملامح الرواية الأوديبية لدى المازني ،حيث حلل مستويات العلاقة التي تتحكم في عائلة إبراهيم ،وطبيعة الصلة التي تربط البطل بوالده وأمه."

لقد تمكن طرابيشي من تحديد النمو النفسي الجنسي للبطل وذلك من خلال علاقة البطل بوالديه ، وأنهما المصدر الحقيقي والرئيسي للإشباع العاطفي ،مما يجعل الولد متعلقا بأمه ويرغب في قتل أبيه. ومن هنا يبرر جورج طرابيشي الحالة التي يعيشها إبراهيم بأنه يعيش حالة من التثبيت على شخصية الأم التي ملأت حياته برمتها ،وجعلت ملامح التعلق بها واضحة في مجمل الروايتين ، حيث يصفها بأنها لم تكن كمثل النساء ، بل كانت رجلا ، ويفسر جورج طرابيشي هذه الحالة أن مردها إلى مقولات التحليل النفسي ، "التي يصبح وفقها إبراهيم معصوبا أوديبيا لم تنفصل في لا شعوره الأم عن الزوجة فتصنيم الأم هو موقف مناقض لمفهوم الزوجة كرمز حامل للجنسية، غير أنّ إبراهيم لم يتخلص نهائيا من هذا الهاجس المكبوت في لا وعيه ومن ثم فهو إنسان لم يفلح بصورة أو بأخرى في تصنيم الأم إلى حد اللاتجنس الكامل." ولهذا فقد يكون طرابيشي قد استند في حكمه أن بطل روايتي المازني تستند على أسس الرواية العائلية الأوديبية ،التي تجعل الطفل يحتفظ بأمه ويسعى لاحتلال مكانة أبيه.